طلول أربعة قرون

(ملحمة قلعة دمدم)

أحـــالـــت الـــواقع الآني الى أســـطـــورة دائـمـــة

جودت هوشيار

تعد ملحمة (قلعة دمدم) من أشهر ملاحم البطولة الكوردية على الإطلاق. فبعد أن مرت أربعة قرون على أحداثها، لا تزال هذه المأساة حاضرة في الوجدان الكوردي، ولا يزال النص الكوردي يلهج بأسماء أولئك الأبطال الذين استشهدوا ودفنوا بثيابهم المضرجة بدمائهم تحت أنقاض تلك القلعة التي بقيت آثارها شامخة حتى اليوم، لتشهد على أكبر ملحمة من الفداء ونكران الذات في سبيل الدفاع عن حرية وكرامة الإنسان الكوردي.

هذه الملحمة تروي قصة نضال أمير كوردي اسمه (أمير خان ذو الكف الذهبية)، شيد قلعة حصينة (قلعة دمدم) لحماية إمارته من شرور الأعداء. وتسرد الملحمة تفاصيل المعركة الدموية التي دارت بين امير خان وأبناء عشيرته من جهة وبين الشاه عباس الصفوي، إذ دافع حماة القلعة الشجعان عن حياتهم وحريتهم وإستقلال إمارتهم الصغيرة حتى آخر رجل، ولم يستطع الغزاة من أسر أي مقاتل كوردي ولم يجد الشاه و جنوده بعد دخولهم القلعة عن طريق المكيدة والخيانة الا الخرائب والأنقاض، إذ فضل الأمير الموت بشرف وكرامة على حياة الذل والمهانة في ظل حكم الشاه. وتشير المصادر التأريخية الى أن هذه المعركة الحاسمة وقعت في عام ١٦٠٥م في الأرجح.

تقع قلعة (دمدم) في شمال غرب كوردستان ايران، وعلى حدودها مع تركيا. وقد ورد ذكرها في كتاب (الشرفنامة) لشرفخان البدليسي الذي دون تأريخ الإمارات الكوردية في القرون الوسطىإذ يقول إن (دمدم) كانت قلعة لرئيس عشيرة برادوست (الموكرية).

إن معركة قلعة (دمدم) ليست من نسج الخيال، وإنما تستند الى وقائع حقيقية هزت مشاعر ووجدان الأدباء والشعراء الكورد على مر الأجيال المتعاقبة، فنظموا فيها القصص والملاحم الشعرية، وكتبوا القصص النثرية التي تمجد أبطال المعركة، فحاكوا حولها الروايات الفولكلورية.

وفي الادب الكوردي الحديث أصبحت معركة قلعة دمدم معيناً لا ينضب للعديد من الملاحم الشعرية والقصص والروايات، لعل أشهرها الملحمة الشعرية التي نشرها الكاتب والشاعر الكوردي الشهيرجاسم جليل في كتابه (أغاني الجبال) الصادر في يريفان ١٩٧٠، ورواية رائد الرواية الكوردية الحديثة (عرب شمو) وهي بعنوان (دمدم)، وصدرت في يريفان ١٩٦٦، كما قدم الدكتور (اورديخان جليل) بحثاً الى جامعة (لينينغراد) لنيل شهادة الدكتوراه في عام ١٩٦٠، ونشره على شكل كتاب صدر في موسكو باللغة الروسية في عام ١٩٦٧ تحت عنوان(الكوردي: خان ذو الكف الذهبية/ دمدم). وعلى هذا النحو نرى ان هذه الملحمة البطولية قد نالت اكبر قدر من العناية والاهتمام بين ملاحم البطولة الكوردية، فهي تجسيد رائع لطموحات الشعب الكوردي وإنشداده الى الحرية والكرامة، كما أن الملحمة طافحة بأنبل المعاني والقيم الانسانية وبإستعداد لا حد له للتضحية والفداء من اجل المبادىء السامية.

وتبدأ الملحمة بلجوء الأمير خان الى كوردستان إيران هرباً من ظلم السلطان العثماني، إذ طلب من الشاه أن يمنحه قطعة أرض يبني عليها دوراً لنفسه ولأبناء عشيرته، فاستجاب الشاه لطلبه وشيد الأمير قلعة حصينة، خطط لها بعناية فائقة حيث كانت أسوارها متينة، ولها أبواب حديدية منيعة لا تؤثر فيها حتى المدافع الثقيلة، وفي داخلها سراديب وأنفاق سرية وأحواض لمياه الشرب وخزانات للمواد الغذائية، والأهم من ذلك كانت القلعة تزود بالمياه من نبع سري تجري مياهه في جدول مغطى بالصخور، ولم يكن يعلم بهذا السر سوى عدد محدود من حاشية الأمير ومن بينهم أحد العمال الذين شقوا الجدول وساهموا في بناء القلعة وهو(محمود المركاني). وتزوج الأمير الكوردي من (كولبهار) أجمل فتاة في المنطقة، وبسبب مشاعر الحقد والبغض أخذ امير المنطقة المجاورة يحيك الدسائس ويلفق التهم ليحث الشاه الصفوي على شن هجوم على القلعة وسكانها، فقرر الشاه قيادة الهجوم على القلعة بنفسه، وحاصر القلعة لعدة أشهر، لكن الحياة في القلعة ظلت منظمة، والروح المعنوية لسكانها عالية.

كانت (كولبهار) قد أنجبت للأمير ولدين، وكان (محمود المركاني) يعمل سائساً لخيول الأمير، لينعم برؤية الحسناء (كولبهار)، فقد كان السائس مغرماً بها من بعيد، ويطيل التفكير فيها من دون جدوى، وطرأت في ذهنه فكرة جهنمية وهي إفشاء سر الجدول الذي يزود القلعة بالمياه الى الشاه، إذ ربما يجازيه الشاه فيهبه (كولبهار)، وتمكن (محمود المركاني) بطريقة خادعة من اللجوء الى الشاه وإفشاء سر الجدول، وجاء الشاه وجلس قرب النبع مسروراً ونهل من مائه بكأس من الذهب وشربه ثم نادى ذلك الخائن وسأله: ((ما الذي دفعك الى الخيانة؟))، فأجابه: ((أريد ان اخدم شاهي وان احقق حلمي في الزواج من كولبهار)). رمقه الشاه بنظرة ازدراء وأمر بقتله سحلاً وذلك بربطه بذيل حصان جامح، كما أمر بذبح قطيع من الماشية وإراقة دمائها في الجدول لتأخذ طريقها الى القلعة، وأضطرب سكان القلعة حين شاهدوا الدم يجري في الجدول عوضا عن الماء، ولكن الأمير الكوردي طمأنهم بأن الاحواض والجرار مليئة بالماء، وان موسم الامطار قريب حيث تمتلئ الاحواض بالمياه من جديد لحين وصول النجدات اليهم من أشقائهم الكورد في الامارات الكوردية الاخرى، ولكن طال أمد الحصار ولم تصل النجدات، وأخذ الماء يشح وقال والد الامير وهو يخاطب رجال القرية: ((خير لنا ان نموت في ساحة الوغى من ان يحتل العدو القلعة ويجدنا نحتضر عطشاً، علينا أن ندافع عن شرفنا وكرامتنا قبل أن ينتهكها ازلام الشاه!)).

فهب شباب القلعة وتسلحوا بشتى انواع الاسلحة. وبعد ان تفقد الأمير تحصينات القلعة و جاهزية جنوده ذهب ليودع زوجته، وثمة في بعض الروايات حوار وداعي مؤثر جرى بين الأمير و زوجته الحبيبة. قال الأمير: ((جميلتي، لقد ولدت لتعيشي حرة فوق الجبال وولدت ولدين كل منهما كالليث الهصور، احرصي على تربيتهما تجدي فيهما سعادتك، وحين تكون القضية قضية شرف فانني أعرف ماذا ستفعلين. لا تنسي هذا اليوم)).نزلت دمعتان من عيني (كولبهار)، وبرقتا كالبرق وإنسابتا على خديها الأسيلين وقالت: ((اذهب يا ليتني الهصور وأنت مفعم بالحب، ولن يغلب رجل الحب والتضحية، ولتكن كولبهار فداء لك. سأربي أولادك وأرضعهم لبان الرجولة و الشجاعة. أستودعك الله. واقسم بسيفك أن أذيع جدارتك وشهرتك واضحي بحياتي من أجلك)). ثم أمر الأمير بإخراج النساء والأطفال والشيوخ من القلعة عن طريق نفق سري يؤدى إلى الجبال القريبة.

كان الغروب قد لون قمم الجبال لتوها بالصفرة الذهبية، حين فتحت بوابات القلعة و تدفقت سيول الرجال هادرة، وبوغت العدو ونشبت معركة دموية ضارية إستبسل خلالها المقاتلون الكورد، ولكن ميزان القوى لم يكن متكافئاً، فقد حشد الشاه جيشاً جراراً يبلغ تعداده أضعافاً مضاعفة لعدد المقاتلين الكورد الذين كانوا يحاربون كالأسود تحت قيادة أميرهم البطل. وبعد أن استشهد معظمهم، لجأ من بقي منهم على قيد الحياة إلى الجبال، ولم يتمكن العدو من أسر أي مقاتل كوردي. وحين دخل جيش العدو إلى القلعة لم يجد سوى الخرائب والأنقاض، فقد فجر الكورد قلعتهم قبل أن يغادروها، حيث كان الأمير الكوردي قد خطط لكل شيء مسبقاً، وحدد طريقة تفجير القلعة عند الضرورة، وغدت شجاعة أبطال قلعة دمدم أسطورة خالدة في الذاكرة الكوردية.

الاديبة والنقابية الكوردية (فينوس فائق):

من دون دنيا الشعر والصحافة.. أنا ميتة!

حاورتها: د.ميديا محمود

كنّاها الشاعر الدكتور (عبدالله الصائغ) بالطائر الكوردي الملون، وقد صدق بذلك، فحيثما أدرت وجهك ثمة وجه مشع لفينوس فائق. فينوس إبنة مدينة السليمانية، الشاعرة والصحفية و الناشطة في مجال العمل التطوعي للاجئين، لها أعمدة ثابتة في دوريات كوردية. وفضلاً عن ليسانس الآداب، فهي حاصلة على شهادات في علم الكمبيوتر والتحرير التلفزيوني والانتاج الاذاعي، ولها ترجمات شعرية باللغات العربية والهولندية والكوردية. تشغل الآن منصب نائب رئيس المركز الثقافي الكوردي في دنهاخ- لاهاي بهولندا. فازت مؤخرا بجائزة مهرجان العنقاء الذهبية الدولي الرحال لعام(٢٠٠٥).

❖ بداياتك كانت مع الشعر. في قصائدك تهب نسائم من كوردستان وعبق من ورودها، وتعانق الغيوم الصخورفي صفحاتك. برأيك هل الشعر هو للشعر على غرار الفن للفن ام انه يجب ان ينبض بآلام الشعب وينزف جراحه؟

- بعض الشعر يكون للشعر و ليس كله، لكن كثيره خصوصاً عند الشعراء الكورد (هؤلاء الآتون من تلك المنطقة الموبوءة بالإحتلال و العذابات و القهر و الذل و الهوان على أيدي الأنظمة الحاكمة التي تقتسم جسد كوردستان الكبرى)، ينبض بآلام الشعب كما قلت و يتنفس قهره و ينزف جراحه، إنه قدر الشاعر الكوردي، أما شعراء الغرب،فتجدينهم يكتبون الشعر للمتعة كما يحتسون الشراب للمتعة، فليس عندهم ما يقض مضجعهم حتى صار الشعر عندهم ضرباً من اللهو والعبث والمتعة، صار الشعر للشعر، لكننا لم نتخلص بعد من لعنة السياسة، تلك العاهة التي ولدنا بها نحن الكورد، لذلك تجدين الشاعر الكوردي لا ينفصل عن آلام شعبه مهما إبتعد جغرافياً.

❖ كيف تقيمين التغيرات التي طرأت على واقع المرأة الكوردية في ظل الإدارة الكوردية المحلية. وهل المرأة الكوردية مستعدة للتخلي عن بعض ما اكتسبته في المرحلة السابقة في ظلّ الدستور العراقي الجديد؟

- خطت المرأة الكوردية بعد تحرير كوردستان خطوات جدية و مدروسة نحو نيل المزيد من الحقوق الإنسانية و الإجتماعية و السياسية. و قد أحرزت تقدماً ملحوظاً في مستواها الإجتماعي من خلال تغيير و تعديل الكثير من قوانين الأحوال المدنية لصالحها، منها القانون الخاص بتعدد الزوجات، وقانون الميراث وغيرها من القوانين، لكن الدستور العراقي الجديد يأتي ليضع المرأة الكوردية أمام التحدي من جديد و يضعها في موقف حرج في مرحلة مهمة من مراحل نضالها من أجل التقدم و المضي نحو مكتسبات أكثر و ليس التنازل من جديد. وهذا الشيء يقلقني في واقع الحال، فمن غير الممكن أن أتصور أن المرأة الكوردية و بعد أن ذاقت طعم الحرية و نالت الكثير من حقوقها و مارستها على أرض الواقع سترضى بما يحدده لها الدستور العراقي الجديد. على المرأة الكوردية في الجزء المحرر من كوردستان الكبرى أن تعي تماماً خطورة المرحلة بالنسبة لها، و أن تتعامل مع المعطيات السياسية الجديدة بمزيد من الحذر ومزيد من الوعي والمسؤولية، لتضمن لنفسها مستقبلاً من نوع آخر، ليس مستقبلاً يحدده لها الرجال القابعون في السلطة، لكنه المستقبل الذي تطمح إليه هي، والوضع الذي تنشده هي، في زمن من المفروض أن نتقدم به إلى الأمام و ليس أن نتراجع إلى الخلف، زمن نحصل فيه على المزيد من الحقوق لا أن نتنازل عن المزيد من الحقوق.

❖ هل تعتقدين بجدوى التمثيل المئوي للمراة في البرلمان -الكوتا-؟ ولا سيما أن تمثيل اولئك النسوة يتم تحت وصاية الرجال وباعدادهم؟

- شخصياً أقف ضد نظام الكوتا الذي هو أضعف الإيمان، فتحديد نسبة التمثيل السياسي في مراكز القرار والمناصب الحكومية والتمثيل داخل البرلمان يحدد حركة المرأة ولا يمنحها المزيد من الحقوق، أنا لا أعتبر نسبة الكوتا إنجازاً أو مكسباً بالنسبة للمرأة في العراق و تحديداً بالنسبة للمرأة الكوردية، إنما هو إهانة و ترسيخ للوصاية الذكورية على حركة المرأة السياسية و الإجتماعية في جميع مجالات الحياة، لأن المرأة الكوردية عندما مارست حقها السياسي ونالت مقاعد البرلمان الكوردستاني نالت ذلك الحق عن جدارة و ليس بنسبة معينة، لا أظن أن المرأة الكوردية سترضى بذلك، و إذا رضيت سيكون خطؤها الفادح.

❖ التناقض الواسع بين أحوال المرأة الكوردية المثقفة، والمرأة العادية هو سمة مميزة للمجتمع الكوردي بأجزائه الأربعة، وكذلك لبعض المجتمعات الإقطاعية كما هو الحال في بنغلاديش مثلاً، حيث إستطاعت المرأة تسلم مقاليد الحكم في بلادها برغم أن أوضاع المرأة فيها سيئة عموماً. ما أسباب هذه الظاهرة، وكيف يمكن تجاوزها برأيك؟

- من المؤكد أن هذه المسألة غاية في الأهمية و جديرة بالنقاش، وبتقديري أن هذه الحالة موجودة في المجتمعات التي تعاني تحديداً من إضطرابات سياسية و إقتصادية، مثل المجتمع البنغلاديشي الذي ذكرتيه، أو المجتمعات التي تسيطر عليها التيارات الدينية والمسلمة تحديداً. ففي كوردستان وبرغم التحرر إلا أن المجتمع الكوردستاني مازال متخلفاً إلى حد ما، بسبب سيطرة التقاليد الدينية و الإجتماعية البالية على الكثير من مجالات الحياة و سيطرتها على عقول الرجال بشكل خاص، كما أن كوردستان مازالت تعاني من إضطرابات وصعوبات سياسية بين الحزبين الحاكمين، و عدم الإستقرار السياسي هذا يترك أثره السلبي على الكثير من نواحي الحياة و بالأخص ما يخص وضع المرأة في المجتمع، حيث ينصرف المجتمع بشكل عام إلى الأمور و المسائل و المصاعب اليومية التي لها علاقة بحياته اليومية، و ينسى الجانب المهم وهو مسألة التوعية، التوعية في كل المجالات. ان المجتمع الكوردستاني يحتاج إلى التوعية السياسية والإجتماعية و الثقافية، حتى النساء اللائي حصلن على مقاعد في البرلمان ينقصهن الوعي بمهامهن كعضوات برلمان.

أما بالنسبة للعراق بشكل عام فالوضع واضح للعيان، هناك فجوة كبيرة بين السلطة في الأعلى و الشعب في القاعدة، فالنظام السابق خلف مشاكل إجتماعية و سياسية تحتاج إلى سنين طوال لكي يتم تخليص المجتمع من تأثيراتها ونتائجها السلبية على العقول.

❖ فينوس فائق إعلامية، وشاعرة، ومترجمة، ونقابية، ومناصرة لحقوق المرأة تكتب المقالة السياسية، كيف توفقين باتمام كل هذا جنبا الى جنب؟ وأين تجدينك تحققين ذاتك اكثر؟

- أجد نفسي حين أمسك القلم وأكتب، سواء التحقيق الصحفي أو المقابلة الصحفية أو القصيدة أو اشارك في نشاط من أجل المرأة، فأنا خلقت لأكون كذلك، لا أتصور نفسي للحظة بدون ذلك العالم الذي خلقت من أجله، ربما الموت وحده يكون الجواب على إبتعادي عن ذلك كله، فأنا بلا دنيا الكتابة والصحافة والأدب والشعر بشكل خاص لا أساوي شيئاً. أما كيف أوفق في ذلك كله؟، فلا أدري، كل شيء يتم في لحظته ومن دون تخطيط، أكتب المقالة عندما أريد و أكتب الشعر في وقته، لا تخطيط، ولا أفكر في كيفية التوفيق كثيراً، أدعه يمشي لأنني أتلذذ من ذلك كله، و أجد ذاتي بين كل ذلك.

❖ما الرسالة التي تحبين توجيهها للكورديات؟

- الرسالة التي أريد أن أوجهها للكورديات هي: اننا نحن الكورديات نختلف عن كل نساء المنطقة، النساء الكورديات حادات الذكاء، والذكاء وحده لا يفيد بالمناسبة لو لم نعرف أين وكيف نوظفه، المهم أن نوظف الذكاء في خدمة القضية الكوردية أولاً، و ذلك سيتم بممارسة حقوقنا السياسية، و ليس المطالبة بها. فنحن الكورديات لسنا بصدد المطالبة بحقنا السياسي و إنما مطلوب منا أن نمارسه مباشرة. و أريد أن أقول لو كنا يداً بيد سنحقق ما يعجز الرجال عن تحقيقه، فالمرأة أقوى من كل الرجال الذين يتصورون أن المرأة كائن ضعيف.

متابعات

إصدارات كوردية

عدي بن مسافر مجدد الديانة الايزيدية

عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، صدر للكاتب العراقي(زهير كاظم عبود) كتابه (عدي بن مسافر مجدد الديانة الايزيدية). ان لشخصية عدي بن مسافر أثراً مهماً في تاريخ الايزيدية، ولهذا صارت له منزلة مقدسة وأساسية في الديانة الايزيدية لما تركه من أثر مادي في تعاليمه ومواعظه وارشاداته وكتاباته وشخصيتة وتراثه وتفاصيل حياته وفلسفته وزهده وحكمته.

فرهاد وشيرين

صدر عن دار(ئاراس) للطباعة والنشر كتاب (فرهاد وشيرين)، للشاعر التركي (ناظم حكمت)، ترجمه من التركية: أحمد تاقانه.وهو ملحمة شعرية عاطفية على شكل مسرحية في ثلاثة فصول.

ديوان شيخ رضا طالباني

صدر عن دار(ئاراس) للطباعة والنشر، كتاب(ديوان شيخ رضا طالباني)، ويضم الديوان قصائد شيخ رضا الذي تميز بالشعر الماجن. الكتاب من إعداد وشرح: شكور مصطفى.

الأكراد

من إصدارات رابطة كاوا للثقافة الكوردية كتاب (الأكراد)، من تأليف (ف. ف مينورسكي)، و ترجمة وتعليق: د.(معروف خزندار)، و د.(كمال مظهر احمد)، طبعة بيروت، ١٩٨٧، يضم الكتاب بين دفتيه عدة فصول يتناول فيها جغرافية بلاد الكورد وسكنهم وتأريخهم وحياتهم اليومية ولغتهم وأدبهم ودينهم وأخلاقهم وحال المرأة الكوردية.

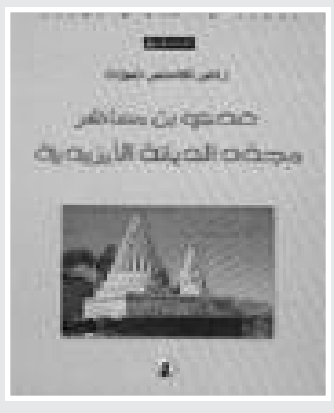

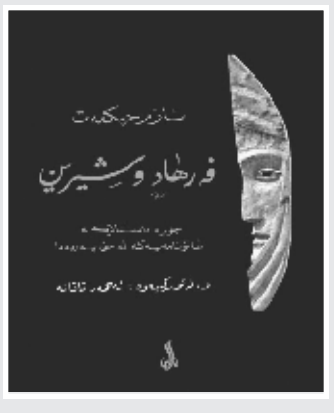

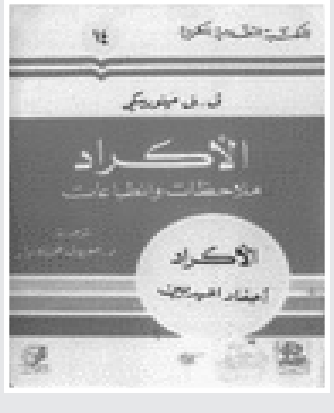

نشاطات ثقافية

معرض

في ذكرى قصف مدينة (حلبجة) بالكيمياوي، إفتتح مركز(زناك) للنشاطات الثقافية والفنية، معرضاً مشتركاً لإثني عشر فناناً شاباً، تحت عنوان (عيون حلبجة)، وذلك على قاعة (الشهيد شوكت شيخ يزدين) بأربيل. ومعظم الرسامين المشاركين هم من طلبة كلية الفنون الجميلة.

امسية شعرية

إمتداداً لنشاطاته الثقافية أقام إتحاد الكتاب الكورد/فرع أربيل، ندوة شعرية مرفقة بعزف موسيقي للشاعرة(ئالا عبدالرحمن) على قاعة الشهيد مهدي خوشناو.

ندوة ثقافية

إستمراراً لنشاطاتها الثقافية، ولمناسبة مرورخمسة عشرعاماً على انتفاضة الشعب الكوردي، عقد مركز (ئاسوس) الثقافي ندوة للدكتور (فاضل جاف)، بعنوان(ماضي وحاضرالمسرح الكوردي)، قدم خلالها بحثا مفصلاً عن تاريخ المسرح وحركة المسرح الكوردي.

كما أقام مركز(كاوه) ندوة لسكرتيرالحزب الإشتراكي الكوردستاني (مسعود تك)، تحت عنوان(كورد تركيا)، وذلك على قاعة المركز.

حوار مفتوح

نظمت منظمة تطوير الديمقراطية، حواراً مفتوحاً لكل من (حمه سعيد حسن)، و (فرهاد بيربال)، و(أبوبكر كارواني)، و(زيره ك كمال)، على قاعة ميديا بأربيل.

مؤتمر

لمناسبة الذكرى السنوية لمأساة حلبجة أقامت مؤسسة (ئاراس)، ، مؤتمراً تحت عنوان (الثقافة واللهجة الكلهورية الكوردية). إستمر لثلاثة أيام، بحضور جمهور غفير من المثقفين والفنانين والأكاديميين الكورد من كوردستان العراق وخانقين وبغداد، ومن كرمنشاه وقصر شيرين في كوردستان أيران، وساهم في المؤتمر أعضاء (المجمع العلمي الكوردستاني)، إذ قدم فيه عدد من البحوث والدراسات حول اللهجة الكلهورية وتأريخها، وعادات وتقاليد هذه المنطقة من كوردستان إيران، كما أقيمت أمسية شعرية باللهجة الكلهورية، وكرمت مؤسسة (ئاراس) عدداً من الباحثين والمثقفين الذين خدموا ثقافة وتأريخ ولهجة تلك المنطقة.